

الإمام الشيرازي ريادة ومنهجية التجديد

2017-07-22 عادل الصوري

تمثل المنهجية كمفهوم مجموعة الإجراءات والقواعد والخطوات التي يتبعها الدارسون والمفكرون، في المجالات العلمية والسلوكية والتجريبية وفي مجالات تحليل الظواهر وغيرها من الأشياء المرتبطة بالإنسان، ومن الطبيعي أن يستند كل مشروع تجديدي ناضج على بعض القواعد التي تشكل منهجاً وهيكليةً للمشروع.

والإمام الشيرازي المجدد انطلق من القواعد التي يمثلها الفكر الإسلامي الأصيل، مستنداً على منهجية حوزوية يرى أنها تستوعب كافة المفاهيم المعاصرة من خلال الاستدلال بالفقه، شريطة إخراجها من تقليديته في معالجة القضايا المتعارف عليها، فالإمام الشيرازي يعتقد أن كل المظاهر الحياتية يمكن أن يتم بحثها وتناولها بواسطة المناهج البحثية الدينية، وهو بهذه الثيمة الفكرية الحدائثية أبطل النمطية الغربية القائمة على تجزئة وتقسيم الظواهر من خلال نظرية الفصل بين الدين والحياة والتي تثبت يوماً بعد يوم فشلها وعدم صمودها أمام الواقع ومتغيراته، كما أن بعض الفقهاء حتى مع وقوفهم ضد هذه التجزئة ودفاعهم عن أهمية الدين وقيمه في الحياة، كرسوا بشكل غير مباشر هذه الانفصالية من خلال التعامل مع الفقه واستدلالاته بتقليدية، بينما أطلق الإمام الشيرازي العنان للأفكار في أن تصل لكل المديات إيماناً منه بالقاعدة العميقة والأرضية الخصبة التي يقف عليها ممثلة بالفكر المحمدي الأصيل وبذلك صارت له ريادة تجديد الفكر الإسلامي من خلال التشبث بأصالته.

يقول الإمام الشيرازي في قضية البحث عن المنهج: "الصحة في الفرد وفي الاجتماع إنما تكون بسلامة (الفرضية الذهنية) من ناحية، وسلامة (النظام المسيطر على المؤسسة الاجتماعية) من ناحية أخرى. وهنا ثمة سؤال: هل نحن بحاجة إلى (فرضية ذهنية) لتسيير أمور المؤسسة الاجتماعية؟ بدايةً نقول: ليس مرادنا بالمؤسسة الاجتماعية (علم الاجتماع) في مقابل علم الاقتصاد وعلم السياسة وغيرها، إنما الاجتماع بالمعنى العام، الشامل للاقتصاد والسياسة والتربية والثقافة وغيرها من الأمور التي تحكم الاجتماع. ومن ذلك ظهر خطأ تصور أن (المؤسسة الاجتماعية

بالمعنى الواسع هي الكل في الكل) ولا مجال بعد ذلك للفرضية الذهنية إطلاقاً، ومن أصحاب هذه النظرية (فرويد)، الذي ضيقَ محور دائرة المؤسسة الاجتماعية في الجنس فقط، بدعوى أنه هو الذي يُسير كل شيء من الدين والأخلاق والقانون وغيرها، وهذا كلام خال من الدليل، وكذا قول (ماركس) بمثل ذلك، مع الفارق أنه يرى حركة المجتمع خاضعة للعامل الاقتصادي تماماً، بينما (فرويد) يبني الاقتصاد على الجنس لا الجنس على الاقتصاد¹

يتأكد لنا من خلال هذا المقطع كيف أن الإمام الراحل يرى عدم هيمنة قيمة معينة من قيم الحياة على قيمة أخرى، بل يشدد على أن تأخذ كل قيمة دورها في الحياة بلا نقصان أو زيادة بحيث لا يمكن أن يتم اختصار نواحي الحياة بقيمة واحدة كما اختصرها (فرويد) بالجنس، أو (ماركس) بالاقتصاد، وكذا بالنسبة لـ (دارون) القائل بأن طبيعة الإنسان من جهة البيئة توجب تنازع البقاء، وهذا يعني أن هؤلاء المفكرين لم يبحثوا عن منهجية أصيلة تعتمد الدليل والبرهان، بينما يركز الإمام الشيرازي على الاستدلال والاحتجاج في كل القضايا؛ حتى نضمن في المنهج أفكاراً ناضجة وغير فاسدة، لها المعايير التي تفرز بين المناهج التي تبني، وتلك التي تهدم بمسميات وعناوين براقية. والحصول على هذه المعايير يستلزم ذهنية حضارية وتنموية، وموازنة واعية بين الإرث والحداثة، وأساليب تؤثر في المخالف، وتحثه على إعادة النظر في قناعاته، بمنطق الحوار والسلم وتجنب الانتقاص منه ومن مفاهيمه التي نشأ عليها، فالتعصب والسباب والشتائم لن تجيء بنتائج فعالة لمن يتبنى منهجاً تجديدياً تغييرياً. فكل شيء بات يتغير من حولنا في ضوء المتغيرات الكونية، وهو ما يندرج بمخاطر يجب التنبه إليها؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من البشرية المهددة نتيجة تراكم المشكلات التي تتفاعل بشكل سريع دون الوصول للحلول الناجعة. وأكثر هذه المشكلات المستعصية على الحل، هي قضية ادعاء أشياء غير موجودة عند من يدعيها خصوصاً إذا جاء الإداء مفتقراً لمنهجية يعتمدها، كقضية الحرية والديمقراطية التي يقول بها من يتبنى الأنماط الليبرالية أو العلمانية، والتي نراها تنحدر على كافة المستويات، وكذا بالنسبة لقضية حقوق الإنسان، وهذان المفصلان هما من أكثر الأشياء التي أضرت بالبشرية في حياتنا المعاصرة حيث الازدياد الملحوظ في الانتهاكات، والصراعات الدولية، وفرض منطق القوة والغلبة بين الأطراف المتصارعة، حيث يُقدم الصراع بعدة أشكال وأنماط تزيد زخم التوتر، وتعمل على وأد محاولات الوصول لحلول جذرية عبر الحوار المنتج والتسامح.

والإمام الشيرازي في ريادته لمنهجه التجديد يركز على استيعاب التحولات المتسارعة إيجابياً؛ من أجل اللحاق بركب التطور الحضاري؛ ولضمان تحريك الركود الفكري، وإزالة شعور اللاجدوى وفقدان قيمة المعنى، وكل الأشياء التي تجعل العالم ممزقاً بالصراعات، تتبعثر فيه القيم، وتدور على مربع قلق تتصارع أضلاعه على مفاهيم العنف والسلطة والهوية والثقافة، ماينذر بظباب كثيف تنعدم فيه الرؤيا، ويغيب عنه المنهج .

1: الإمام الشيرازي، عالم الغد، الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام : ص 89